ورقة فى تحديدالمفاهيم

أ.د / أحمد محمد مسلم
كينيا

مدخل فى موضوع تحديد المفاهيم

تلقيت الدعوة الكريمة من وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية لحضور المؤتمر العام الحادى والعشرين للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وقد وقع اختيارى على المحور الأول الذى هو: "تحديد المفاهيم ".

وإنى اخترت هذا المحور لأتيح لنفسى فرصة التفاعل مع هذه المصطلحات المحتوى عليها فى هذا المحور؛ وذلك لما رأيت من الخطورة التى للأسماء والجاذبية التى تترك آثارها على فهم الإنسان لحقيقة من الحقائق. فإذا جاءت فى مصطلح صحيح وتم التعامل معها بفهم صحيح أفادت ما أريد لها أن تفيد، وأوصلت إلى النتيجة المرجوة المنشودة.

فكم من كلمات اجتثت من مواضعها عنوة لتغيير مفهومها لغرض من الأغراض السيئة! وأوضح مثل عندى لمثل هذا الموقف هو ما ألتقطه من شرق إفريقيا لدى بعض إخواننا الذين يعمدون إلى الكلمات التى لها علاقة بالدين الإسلامى فحرفوها؛ لغرض ومنها تسمية الكنيسة بالمسجد.كما إن من ذلك أن السبابة فى اللغة السواحلية يعرف باسم إصبع الشهادة، سماها الرئيس نيريرى باسم الإصبع الرابعة والغرض من ذلك معروف.

وهذا الاستغلال للمصطلحات لمثل تلك الأغراض أمر قديم، فلقد كان اليهود يتسابّون بكلمة: " راعنا " التى كان معناها عندهم: " اسمع لا سمعت "، فصاروا يخاطبون بها رسول الله ﷺ لأنهم كانوا يخشون أن يشتموا الرسول ﷺ علنا فاحتالوا على سبّه بهذه الحيلة السفيهة. ولذلك نهى القرآن المسلمين عن استعمال تلك الكلمة.

وكان اليهود يتبجّحون بقبحهم قائلين: " إننا كنا نسبّه سرًّا والآن نسبّه علنا، وذلك لأن أصحاب

محمد أنفسهم يستعملون هذه الكلمة لمعنى " التفت إلينا ". قال الله تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(البقرة:١٠٤)وهذا يدل بكل وضوح على الأثر السيئ الذى كان للكلمة؛ إذ لولا ذلك لما نهوا عنها.

ومن هذا الموقف أيضا ما نجده فى بعض المسلمين المتحمسين من ذوى الحماسات التى لا رشد فيها، من حيث يتبجح أحدهم مرددًا بأعلى صوته: " أعداؤنا يسموننا إسلاميين،نعم نحن إسلاميون"

وليس المسلم بإسلامى لأن واضعى هذا المصطلح يعنون به أن من يسمونه به من المسلمين هم الذين انحرفوا عن الإسلام الصحيح فأصبحوا إسلاميين متطرفين غالين يرتكبون الحماقات والشناعات باسم الإسلام.

وأعجب من هؤلاء من يتحمس ويقول متشنجا: "نعم إنى إرهابى لأنى مسلم أمرنى الله أن أكون إرهابيا"، والله تبارك وتعالى لا يأمر بالفحشاء. ولكن يقول ذلك عن سوء فهم تعلق به لتلك الآية القرآنية التى يقول فيها الله سبحانه وتعالى:﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾(الأنفال: ٦٠)، فهذا غلط يشتقه الإرهابى من كلمة "ترهبون" التى منها كلمة مرهِب طبعا. والفرق واضح بين الإرهابى والمرهب. فالمرهب يرهب العدو فقط إذا اقتضى الأمر ذلك على ضوء قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة: ١٩٤)، أما الإرهابى فهو الذى جعل الإرهاب ديدنه ودينه!

فلهذا أو لمثل هذا تدعو الحاجة إلى تحديد المفاهيم حتى لا تقوم مصطلحات جديدة مغرضة مكان مصطلحات صحيحة صالحة. ونتيجة هذا العمل الوخيمة هى التى وصفها بعض علمائنا بقوله: " إنه خطر قاصم تنقطع به صلة المسلمين العرب من نصوص دينهم، بيد أن الذى نخاف منه اليوم بهذا الخصوص إنما هو لى أعناق الكلمات لوضع المصطلحات للتضليل والتخريب.

وفيما يلى أقوم بمحاولة متواضعة فى تحديد مفاهيم الموضوعات التالية:–

١) الدين والوحى.

٢) القيم والأخلاق.

٣) الاجتهاد والتجديد والحداثة.

٤) العقل والنقل والتأويل.

٥) الإبداع والابتداع.

٦) الجمود والتقليد.

٧) الأصولية والتراث، والتاريخية.

الدين والوحى

▪الدين:

وهو فى اللغة: الجزاء والمكافأة. فمعنى دنته بفعله، أى جزيته. ويأتى أيضا بمعنى العادة، تقول العرب: ما زال ذلك دينى وديدنى.

وهو اصطلاحا: نظام من عقائد وعبادات تربط الناس ببعضهم وتؤلف من معتنقيها أمة ذات وحدة معنوية. وعرّفه ابن منظور الإفريقى فى لسان العرب بقوله: " والدين: الإسلام، وقد دنت به. وفى حديث على عليه السلام: محبة العلماء دين يدان به ".

وواضح أن من قال بأن الدين هو الإسلام، يعنى به أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم دعوا إلى الإسلام، كما قال تعالى فى القرآن الكريم: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِىٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِىٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ﴾(الشورى:١٣)قال الإمام القرطبى فى شرحه لهذه الآية: " أن أقيموا الدين "وهو توحيد الله وطاعته والإيمان برسله وكتبه وبيوم الجزاء وبسائر ما يكون الرجل بإقامته مسلما.

ولم يرد الشرائع التى هى مصالح الأمم على حسب أحوالها فإنها مختلفة متنوعة، قال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةً وَمِنۡهَاجًا ﴾(المائدة: ٤٨)ونبى الله إبراهيم المكنى بأبى الأنبياء والذى جعله الله تعالى أسوة لنا مطالبين بعدم الرغبة عن ملته، كانت ملته الإسلام المبينة، يقول الله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾(البقرة:١٣١)فملته إذن الإسلام الذى يعرفه العلماء بأنه الانقياد والخضوع لما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، فلا يخرج بهذا التعريف من كونه هو الإسلام!

وقوله تعالى فى حق المشركين أن لهم دينهم كما أن لمحمد دينه،إنما هو لأنهم اعتقدوه وتولّوه. وإذا علمنا بأن معنى الدين هو الجزاء،فيكون معنى ذلك: لكم جزاؤكم ولى جزائى. وقد أشار العلماء إلى أن فى هذا التعبير وعيدا وتهديدا. ومما جاء عن العلماء بخصوص هذا،هو أنه يشير إلى ذلك الدين الذى يدين به الإنسان بطبعه لمجرد كونه إنسانا وذلك لتأصل غريزة التدين التى هى

مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية. فالاهتمام بالمعنى الإلهى وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية.

ولهذا نجد بين وثنية الجاهلية من أدرك أن للخلق خالقا، وأن للخلق معادا، وأن لأعمالهم حسابا. وليس بأدل على هذا من قول زهير بن أبى سلمى:

فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما تكتم الله يعلم

يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم

و يرى بعض المعاصرين أن فى قوله تعالى: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾(الكافرون: ٦)،إشارة إلى ضرورة مخاطبة الغير بما يرضى به، حتى نتمكن من إسماعه ما لا يرضى عسى أن يرضى به! وهذا عندى بعيد.

الوحي

وهو فى اللغة: الإشارة،والكتابة،والرسالة،والإلهام،والكلام الخفى،وكل ما ألقيته على غيرك. ويأتى أيضا بمعنى الأمر،كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ (النحل:٦٨) أى: أمرها. ويأتى بمعنى أومأ، كما فى قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ (مريم:١١).

وحقيقة الوحى فى الدين هى،أنه أس الأسس التى تنبنى عليها جميع حقائق الدين التى تعود إلى أمرين عظيمين وهما العقائد والشرائع. والفهم الصحيح له مع اليقين به يشكلان المدخل الرئيسى الذى لا بد من وجوده للنفوذ إلى التيقن بكل ما جاءت به رسل الله عليهم الصلاة والسلام. ولما كانت تلك هى مكانة الوحى وتلك هى أهميته بالنسبة للدين أتباع الدين توجهت إليه جهود أعدائه التى بذلت للتشكيك فيه والخلط بين مفهومه ومفاهيم الحقائق الأخرى مثل الإلهام وحديث النفس والصَّرَع أحيانا. وليست هذه المفاهيم التى حاولوا إثارتها أمورا توصلوا إليها بعقولهم المتأملة حتى اعتقدوا بها فتحدثوا عنها كما فعلوا عن اقتناع بما قالوا. كلاّ ولكنها أمور حاكوها أغراضا. فكم منهم من زعم أن الرسول ﷺ دأب على التفكر والتأمل إلى أن تكون له كشف تدرُّجى أوصله إلى مجموعة عقائد وضعها لقومه مستهدفا القضاء على الوثنية. وكم من معاد للإسلام أذله هواه حتى جسر على التقوّل على الرسول ﷺ بأنه كان يعانى من مرض الأعصاب أو أنه كان مصابا بالصرع.

فلننظر إلى واقع ما كان عليه الرسول ﷺ وواقع ما كان بينه وبين قومه الذين قام يدعوهم إلى

الإسلام، حيث إنهم كانوا مشركين يعبدون الأصنام وينتصرون لها ويستميتون للدفاع عنها لأنها دين آبائهم، كما قال صاحب الهمزية:

ثم قام يدعو إلى اللـــــ ــه وفى الكفر نجدة وإباء

فمع أنهم كانوا كذلك حيال أصنامهم،تحداهم الرسول ﷺ بمنتهى التحدى فلم يستطيعوا أن ينازلوه مع كونهم الفصحاء والبلغاء.

فهل المصروع العصبى يتمكن من ذلك ؟ قال لهم:﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾(البقرة: ٢٣).

فتأمل: " وادعوا شهداءكم " ولم يقل: " وادعوا شهداء "، فالمبالغة الواضحة هنا فى التحدى هى أن الشهود الذين سيأتون للإدلاء بالشهادة هم الشهود الذين يوالون لما يوالى به أولئك المشركون الذى تحداهم الرسول ﷺ.

القيم والأخلاق

أما القيم والأخلاق، فنعنى بها تلك الأمور التى تنبثق من ذات الإنسان كإنسان محتفظ بإنسانيته لم تتلطخ فطرته بقاذورات من خارج هذه الفطرة السليمة التى تلتقى مع ركائز العقيدة الصحيحة. فإذا تفاعلت الفطرة السليمة مع العقيدة الصحيحة،حصلت تلك القيم المعنوية المطلقة، والتى تؤثر كل سيرته الحياتية.

ودور الإيمان الإيجابى بهذه القيم كبير جدا. فإذا لم يكن لأى مجتمع إيمان بهذه القيم المطلقة وكانت القيم بالنسبة له نسبية،فإنه بدون شك يفقد تلك الصفة الإنسانية.

ولله در من قال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت وإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ومعنى هذا الذهاب،هو ذهاب الإنسانية وإن بقيت أجساد الناس والأغراض المادية معهم.

ونحن نؤكد على ضرورة الإلتزام بهذه القيم النابعة من الدّين نظرا لأن الدّين نظام إلهى وصاحبه الذى هو الخالق لهذا الإنسان،هو الذى يعلم به وبما يصلح له:﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾(الملك: ١٤).

وتأكدنا من كون هذه القيم صادرة من خالق هذا الكون، مبنى على ما تلقيناه من الدين نفسه من تعليمات لا يسعنا مطلقا إنكار كونه تعليمات ثابتة، وأنها من الله، وأنها ليست نسبية لكونها مطلوبة

فى جميع الأحوال وفى كل الظروف. فهذه مثلا قيم العدالة، ألا تقرّ بها الفطرة الإنسانية؟ أيقول قائل بأنها قيم نسبية أليست بقيمة مطلوبة، وإنها مطلقة؟

و هل يستطيع أن ينكر أحد ذلك التلاقى الثابت بين الأديان السماوية على الإيمان بوجود الخالق المدبر المبدع؟ وعلى الإيمان بحقوق الإنسانية مثلا؟ وعلى الدعوة إلى التكافل الاجتماعى بين بنى البشر؟ وعلى الدعوة إلى النزاهة والمروءة والحياء والعفة؟ إلاّ من أصيب فى فطرته بداء الشذوذ وهو داء عضال. بل إن القوم إذا أصيبوا بهذا الدّاء اعتبرهم أصحاب العقول أمواتا. فهذا أحمد شوقى يقول:

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهم　　فأقم عليهم مأتما وعويلا.

ويقول فى مكان آخر:

صلاح أمرك بالأخلاق مرجعه　　فقوم النفس بالأخلاق تستقم.

وأصحاب الأخلاق يعيشون بأخلاقهم وإن ماتوا ومن عاش بدونها كان من الأموات وإن عاش.

كما قال قائلهم:

كم مات قوم وما ماتت مكارمهم　　وعاش قوم وهم فى الناس أموات.

و نحن إذا تحدثنا عن الأخلاق،فإننا نربطها دائما، وبحق، بالخالق تبارك وتعالى الذى خلق الإنسان وأراد أن يكون هذا المخلوق،مخلوقا زكيًّا مترفعا عن سفاسف الأمور بأخلاقه الإنسانية الرفيعة.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾(الشمس: ٧-١٠). وهو تبارك وتعالى أرسل إلينا الرسل عليهم الصلاة والسلام بتعاليم الكتب السماوية التى علمتنا وزكتنا.

فهذا الرسول ﷺ يقول: " **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** ". يقول عنه الربّ تبارك وتعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾(البقرة:١٥١).

الاجتهاد والتجديد والحداثة:

الاجتهاد فى اللغة هو: بذل الوسع والمجهود. فهو افتعال من جهد.

وقال بعضهم: هو استفراغ الوسع فى تحقيق أمر من الأمور، ولا يستعمل إلاّ فيما فيه كلفة

ومشقة. فيقال: اجتهد فى حمل الرحى. ولا يقال: اجتهد فى حمل خردلة أو نواة.

والاجتهاد فى الاصطلاح هو: بذل الجهد فى استخراج الأحكام من شواهدها الدالة عليها بالنظر المؤدى اليها.

ويجيء الاجتهاد فى الشرع عندما تحدث قضية ولم يكن هناك نصّ فى الكتاب والسنة.

والإجماع، وهو أصل رابع من أصول الشريعة، أقرّ به الكتاب الكريم فى مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾(النساء:١٠٥).

وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(يونس: ٢٤).

وقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(الروم: ٢٨).

وفى السنة، عن النبى ﷺ حين بعث معاذا قاضيا إلى اليمن أنه قال له: " **بم تقضي؟ قال: بما فى كتاب الله. قال: فإن لم تجد فى كتاب الله؟ قال: أقضى بما قضى به رسول الله. قال: فإن لم تجد فيما قضى به رسول الله؟ قال: أجتهد برأيي! قال: الحمد لله الذى وافق رسول رسوله** ".

ومن هذه الآيات أخذ الفقهاء سند الاجتهاد،وإنه يمكن أن يسمى بالاجتهاد،أو بالرأى ،أو بالعقل،أو بالقياس.

كما جاء فيما قال عمر ابن الخطاب لأبى موسى: "....... وقس الأمور على ذلك ".

ومما تقدم نخلص إلى القول بأن الاجتهاد المراد فى الشرع هو: ردّ القضية التى تعرض للحكم من طريق القياس إلى الكتاب والسنة. وليس الاجتهاد مجرد رأى يراه الواحد من قبل نفسه من غير عودة إلى الكتاب والسنة. وعليه،فإن العلماء اشترطوا على المجتهد شروطا ثلاثة:

١) العلم بالقرآن.

٢) العلم بالسنة.

٣) العلم بمسائل الإجماع، وهى التى سبق الإجماع عليها!

أما التجديد الذى يتغنى به بعض الملخبطين، فلا ينبغى أن يتجاوز مواكبة ركب الزمن عند حدوث قضية جديدة لم تكن موجودة فى عهد السلف الصالح، فنجدد له موقفا شرعيا مقبولا يستند إلى الأصول الشرعية الصحيحة. ولا يمكن أن يكون معنى التجديد هو تجديد الشرع نفسه إلا بإعادة الناس إليه بعد انحرافهم عنه كثيرا أو يسيرا.

أما الحداثة،فهى فى اللغة مشتقة من كلمة حدث،فالحديث نقيضه القديم، والحدوث نقيضه القدم. و حدث الشيئ حدوثا وحداثة،وأحدثه هو،فهو محدث. والحداثة الاصطلاحية التى يذهب إليها

الدعاة،فالمتبادر إلى أذهاننا عند ذكرها،هو أنها ما يعنون بها من الضرب على الحائط بكل ما هو سلفى قديم مضى عليه الزمن، فرفضه العصر الحديث لمخالفته لما عليه الموضة. فهو ما غبر عليه الزمن out fashioned،فأصبح:

فرأوا أنه يتحتم على أهل العصر أن ينبذوه كما نبذوا الموضات القديمة فى الملابس والزينة.

جاءت الحداثة على ما يبدو لى من أبناء جلدتنا الذين درسوا فى الغرب أو تأثروا فقط بالقيم الغربية التى تدعو إلى نبذ كل ما هو قديم وكل ما كان عليه السلف مهما كان هذا المنبوذ.

فالحداثة كما يدعون إليها، لا تترك الأخضر واليابس إلا أتت إليه لتقضى عليه ما دام قديما. فهم لا يكثرونه بشيء من تلك القيم بل يسمونها بألقاب منفرة لتنفير الناس منها.

فمنها قولهم: إنها قيم بالية مضى عليها الزمن فلم تعد صالحة لعصرنا الحديث.

ويتفننون فى إحداث العبارات المغرية للاستهجان بكل القيم التى لا يريدونها وزخرفة قيمهم الحديثة التى يدعون إليها، فهم أعداء الأنبياء الذين أشار إليهم الحق تبارك وتعالى بقوله: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ** ﴿١١٢﴾ ﴾ (الأنعام: ١١٢). وكأنى بتقديم الإنس على الجن فى هذا المطلب هو أن الإنس فى هذا أفعل من الجن. فهم يغرون السطحيين والسذج من بعضهم بهذه العبارات المنمقة للغرور وما هم إلا يفترون.

أتى دعاة الحداثة إلى اللغة لمحاولة القضاء عليها لصالح اللغات الأجنبية متنكرين لأصولهم ولغتهم، فارتكبوا حماقة لا يرضى بها عاقل، من حيث لا يعقلون أنهم بهذا الذى يفعلونه،يقتلون أنفسهم عن طريق محو لغتهم. كما أنهم يسمونه الحداثة،يريدون القضاء على الأديان السماوية وليس فقط الإسلام بل كل الأديان السماوية حتى اليهودية والنصرانية، لأن الأديان،أشياء قديمة وهم لا يريدون الانتماء إلى أى شيء سابق.

ويبلغ هذا الموقف من الدعوة إلى الحداثة حدًّا يمكن وصفه بأنه تبديل للدّين!

فهم يريدون القضاء على كل شيء قديم مهما كان حسنًا لينتهى الإنسان إلى الانسلاخ حتى من بشريته ليلتحق بالبهائم. وأظهر مظهر لذلك، هو أن الفحل إذا اشتهى أن ينزو على الأنثى نزا عليها على ملأ ومشهد من أقرانه فلا يمنعه عقل ولا يحجبه قيمة من القيم عن إتيان ما يشتهيه. فهذه الدعوة دعوة خبيثة تتوجه إلى قتل الشباب المغترين بها، كما فعلت بهم المخدرات التى هى أيضا شيء من هذه الحداثة.

العقل والنقل والتأويل

العقل لغة هو: الحجر والنهى. وهو ضد الحمق.

وهو أيضا بمعنى العقد الذى هو بمعنى الحبس، لأنه يعقل صاحبه من شطحاته.

فالعاقل هو الذى يحبس نفسه ويردها عن هواها. ويكون أيضا بمعنى الإمساك، كقولهم: عقــل الدواء بطنه بمعنى: أمسكه.

وحقيقته أنه القوة المدركة فى الإنسان وهو مظهر من مظاهر الروح. وقالوا بــأن العقــل هــو النفس، والنفس هو العقل. وبالعقل تدار حقائق الأمور ويفصل بين الحسن والقبيح. والعقل عقــلان: عقل هو الأصل وهو الذى تفرد الله بصنعه، وعقل يستفيد المرء به وهو الفرع. فإذا اجتمعا قــوى كل واحد منهما الآخر.

قال على رضي الله عنه:

رأيت العقل عقلين   فمطبوع ومسموع

فلا ينفع مسموع   إذا لم يك مــطبوع

كما لا ينفع الشمس   وضوء العين ممنوع

و يهمنا كثيرا فى هذا الموضوع، معرفة مكانة العقل الشرعية، وذلك من خلال معرفة ما يلى:

١) أنه لا ينبغى ولا يجوز تقديم العقل على النقل كما قيل: إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم العقل لأن العقل أصل النقل. وهذا المذهب ينبنى على أساس ثبوت التعارض بين العقــل والنقــل. والواقع ليس كذلك فمن وهبه الله حسن القصد وصحة التصور تبين له أن المعارضة واقعة بين ما يفهمه النفاة من النصوص وبين العقل الصريح، ولكنها غير واقعة بين ما دل عليــه النقــل وبــين العقل.

فكلما علم بصريح العقل الذى لا يختلف فيه العقلاء لا يتصور أن يعارض الشرع البتة. ومــن تأمل ذلك فيما تنازع العقلاء فيه من المسائل الكثيرة، وجد ما خالف النصوص الصريحة الصحيحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها.

و **التأويل** لغة تفعيل من آل يؤول إلى كذا أى صار إليه.

فالتأويل إذن هو: التصيير، فهو تفسير ما يؤول الشيء إليه.

و التأويل فى اصطلاح أهل التفسير والسلف الصالح من أهل الفقه والحديث فمرادهم به معنــى التفسير والبيان. كما يقول ابن جرير الطبرى وغيره: التأويل فى قوله تعالى.......

ومن ذلك قول الإمام أحمد فى الرد على الجهمية، " فيما تأولته من القرآن ".

و يتضح من هذا أن التأويل نوعان:–

١) تأويل هو فى الواقع تحريف، فهو اسم على غير مسمى. فقد سمى ذلك التحريف تأويلا، لنفس معنى تحريف الكلم عن مواضعه. وهو المشار إليه بقوله تعالى:﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ﴾(النساء:٤٦).

ويكون ذلك التأويل تأويلا بغير دليل فهو تأويل باطل. ومما دفع أصحابه إلى تسميته تأويلا بدلا من تسميته تحريفا، لأن التحريف لا يقبله أحد، فأوَّل كى تقبله النفس.

٢) تأويل هو بمعنى التفسير، ومنه ما جاء فى دعاء الرسول ﷺ لابن عباس: «**اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل**». وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ (آل عمران:٧).

و هناك تأويل بمعنى صرف اللفظ عن ظاهره، وينقسم هذا النوع من التأويل إلى قسمين:

* تأويل محمود.

* تأويل مذموم.

فما دل عليه دليل شرعى فهو تأويل ممدوح، وما لم يدل عليه دليل شرعى، فهو تأويل مذموم، وهو الذى اعتبرناه تحريفا فيمل مضى.

فالتأويل المقبول هو ما دل عليه الدليل فى مثل قوله تعالى:﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ (النحل: ١). فإذا قلنا سيأتى أمر الله بخلاف ما دل عليه اللفظ كنا مؤولين ولكنه بدليل والدليل هو هذا الموجود فى نفس الآية: " فلا تستعجلوه ".

أما قولهم فى الرحمن: الرحمن على العرش استوى بمعنى استولى، فذلك قول بلا دليل، نعوذ بالله منه ومن مثله.

الإبداع والابتداع

الإبداع فى اللغة هو: الاختراع على غير مثال.

والله تبارك وتعالى بديع السموات والأرض.

والابتداع يأتى بنفس هذا المعنى. والمراد بهما اليوم فى الاستعمال الشائع هو: أن الإبداع ابتكار أمور من شئون الحياة، كإبداع جوال يحمل أكثر من شريحة ولا مانع من ذلك شرعا. ثم إن

الابتداع غلب عليه الاستعمال فى أمور الدين بعد الإكمال، وهو أمر مذموم فى الشريعة. وهناك من يلخبط بين الإبداع فى الدنيويات والابتداع فى الدينيات، فيقول أحدهم إذا أراد أن ينتصر للابتداع فى الدين، إن الإبداع شيء جميل ينبغى أن نحث الناس عليه. وقد سمعت غربيًا يلقى خطبة فى اللغة الإنكليزية وهو يفسر هذه المعانى، فذهب يتساءل متعجبا: لماذا ينكرون الابتداع والإبداع شيء محمود.

و ليس المذموم هو الإبداع أو الابتداع اللغوي، وإنما المذموم هو الابتداع الذى أحدث شيئًا في الدين، ويكون ذلك بوضع شيء ليس من الدين واتخاذه دينا يتعبد الرب به.

و لا يصح أن يعتبر من هذا ما قاله عمر رضى الله عنه " نعمة البدعة هذه ". وذلك لصلاة التراويح التى كان الرسول ﷺ صلاها معهم ليالى ثم تركها لسبب بيَّنه، وهو مخافة أن تفرض عليهم، وبوفاته عليه الصلاة والسلام، انتفى ذلك السبب.

و قول ابن الأثير: البدعة بدعتان: بدعة هدى وبدعة ضلال، فما كان فى خلاف ما أمر الله به ورسوله ﷺ فهو فى حيز المدح، وما لم يكن له مثال موجود كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف، فهو من الأفعال المحمودة ولا يجوز أن يكون ذلك فى خلاف ما ورد الشرع به. ولا ينبغى لأحد أن يفتح لنفسه بابا للابتداع بهذه الحجة، أن هناك بدعة حسنة وبدعة سيئة، فهذه الأمور الحسنة أمور لها أصولها الشرعية، فهى غير مبتدعة، وتسميتها بدعة تسمية لغوية. ثم إن ما أتى به عمر رضى الله عنه لا يكون بدعة، وكيف يكون ذلك كذلك وقد قال ﷺ: " **عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي**"؟

و من ذلك قوله ﷺ: " **اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر**".

و البدع التى يحاربها المتمسكون بالسنة، ليست من هذه الأمور الدينية المحمودة، إنما هى أمور منكرة لا يمكن للشريعة أن تقبلها.

التقليد هو: قبول قول الغير من دون مطالبة بحجة. فالمقلد لا يحتاج إلى السؤال لا عن كتاب ولا عن سنة الرسول ﷺ. وقد يبلغ الأمد بالمقلد أن لا يكترث بدليل شرعى لوجود قول من يقلده!

و ما لمسناه فى المقلدين هو أنهم لا يكتفون فقط بقول من يقلدونه من غير أن يطالبوه بدليل أو حجة، ولكنهم يتجاوزون ذلك إلى رفض الدليل والحجة ما دام قول مقلدهم موجودا.

الأصولية: شاع هذا المصطلح فى الأمة وذهب فيها كل مذهب مقبول وغير مقبول. وهو مصطلح مقحم فينا لغرض سيء فى نفوس أعداء الأمة الإسلامية، استورد كما استوردت المساوئ الأخرى، فتعايش معها وتفاعل معها لتحدث فينا ما تحدثه من مفاهيم خاطئة سيئة!

فالأصولية كلمة عربية وضعت لتترجم كلمة إنكليزية هى: Fundamentalism

استعارها الغرب المسيحى من تسميتهم التى وضعوها على فرقة مسيحية بروتستانتية، ومقتوها لتطرفها وموقفها المتزمت فى التمسك بالأصول. فلما أرادوا أن يظهروا كل مسلم متمسك بدينه بمظهر سيجعله بغيضا إلى الغربيين قلدوه هذا الاسم. وهؤلاء فى نظرهم هم أولئك الذين يطلقون لحاهم ويحفون شواربهم ويقصرون ثيابهم، أو حتى أولئك الذين يواظبون على الصلوات المفروضة!

مع أن التمسك بالأصول من صميم ديننا الذى لا نتركه فلا نعطل شريعة من شرائعنا كما يفعلون.

فقارن بيننا وبين غيرنا فى التمسك وعدم التمسك بالدين.

هذا الإسلام يحرم الربا وقد حرمته اليهودية والنصرانية، ولكن الملموس لدى الجميع هو أن الإسلام وحده هو المحرم للربا نظرا لأن المسلمين أطاعوا التعاليم الدينية فى تحريم الربا، فحرموا على أنفسهم التعامل بها. وأمثلة هذه المواقف كثيرة والمجال لا يتسع لسرد الكلام حول الموضوع.

التراث: التراث فى اللغة، كلمة مشتقة من كلمة ورث ووارث وميراث. وهو أن يكون الشيء لقوم ثم يصير إلى آخرين بنسب أو بسبب من الأسباب. وقد يكون ماديًا وهو التركة التى يخلفها الميت لورثته أموالا أو عقارا أو حيوانات أو غيرها. وقد يكون معنويا أى إرثا ثقافيا كما قال عمرو ابن كلثوم فى معلقاته:

ورثنا مجدا علقمة بن سيف ... أباح لنا حصون المجد دينا

ورثنا مهلهلا والخير من ... زهير نعم ذخر الذاخرينا

فالتراث يعنى الميراث. وقد ورد فى النصوص التراث كما فى قوله تعالى:﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا** ﴾(فاطر ٠٣٢). وقوله تعالى: ﴿ **يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا** ﴾ (مريم: ٦).

و فى السنة، ذلك الحديث الذى أخرجه أبو داود والترمذى وغيرهما، وجاء فيه: " **وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر** ".

و إذا تصورنا التراث بهذا المفهوم السماوى أدخلنا فيه كلا من الوحى الإلهى، والإنجازات البشرية فكرية كانت أو حضارية، وعندئذ نضطر إلى التمييز بين هذين النوعين من التراث للفارق بينهما.

و إننا إذا فعلنا ذلك واجهتنا حقيقة أن الوحى الإلهى الذى ذهبنا إلى اعتباره تراثا يمتاز حقيقة أنه لا ينتقى ولا يطوع لواقع خارج منه مع أنه لا يتصادم مع واقع لا ينبغى أن يعــدل. ولا يوظــف الوحى لتحقيق مصلحة تراه البشرية كذلك. مع أن الإنجازات البشرية حضارية كانت أو ثقافية تنقى وتوظف وتطوع لتتفق مع رؤية معاصرة مرعية، والكلام فى هذا الموضوع يطول ويحتــاج إلــى مساحة أكبر إلى وقت أوسع مما أتيح لنا.

التاريخية:

اعتمدت المذهبيات والفلسفات المعاصرة فى تدعيم وجهتها التاريخ البشريّ، فسعت كل منها إلى تأكيد أن حركة التاريخ البشرى وتحولاته تدل على صحة ما تقول به. وتلك تشمل كلا مــن كتــب التاريخ أو القبائل البدائية أو الحضريات، والآثار نحوها.

الخاتمة

إنى فى خاتمة هذه العجالة، أرى أن أشير إشارات خفيفة إلى بعض ما تحدثت عنه فيهــا فــى صورة تلخيص لما جرى الحديث عنه.

و من ذلك الدين. تعالج الثقافة الغربية المعاصرة موضوع الدين بناء على المفاهيم التى قامــت على أنقاض سلوكيات النصرانية التى انهارت بسبب الانحلالات الخلقية من قبل رجال الكنيسة وما لمسته هذه الثقافة من قيام بعض رجال الكنيسة بتكييف تعاليم النصرانية وفق تغيرات الزمن، مــن أجل تحقيق مصالح قادة الكنيسة الذين قلدوا أنفسهم مناصب النفوذ والهيمنة والتسلط، الأمور التــى أبغضتهم أى الناس فأبغضوا النصرانية ذاتها. ثم أرادوا أن يقفوا نفس الموقف مع الدين إلى ديــن مهما كان، ولكن موقفهم ذلك ارتطم بواقع أن الإسلام ليس كذلك، وقادة الــدين الإســلامى ليــسوا كذلك. فذهبوا يحاربون الإسلام بوسائل أخرى، ومنها وســائل التــشويه والتنفيــر مــن اخــتلاق مصطلحات مغرضة، بتلوية أعناق البعض وتزييف البعض الآخر، فاستحدثوا الأصولية والتطرف والإسلاميين إلى جانب مصطلحات أخرى كثيرة مغرضة. ولهذا كان من المهم جدا تحرير وتحديد هذه المفاهيم لتبرئة الدين من تلك التى زيفت؛ لتعنى ما لم توضع من أجله.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

المراجع

١) القرآن الكريم.

٢) العقيدة الوسطية شرح الشيخ محمد صالح العثيمين.

٣) أساليب الدعوة المعاصرة، د/ أحمد بن ناصر العمار.

٤) لسان العرب، لابن منظور الإفريقي.

٥) دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي.

٦) الدين الخالص، محمد صديق حسن.

٧) مناهج البحث فى العقيدة الإسلامية فى العصر الحديث، د/ عبد الحمن بن زيد الزبيدي.

٨) مختصر الصواعق المرسلة، لابن قيم الجوزية.

٩) مشكلة الغلو فى الدين، عبد الرحمن بن معلا اللويحق.

١٠) الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر، د/ محمد البهي.